- الأول: كهوف البتراء: والبتراء مدينة كاملة منحوتة في الصخر ازدهرت مع التجارة،واضمحلت مع تحول طرقها. ولا ينطبق وصف الكهف عليها كذلك تتابع المبانى: ونقصد بناء المعبد فوق الكهف.
- الثانى: كهوف جبل قاسيون شمالي دمشق.. وفى هذا الموقع غيران تنسب إلى عدد من الأنبياء وذريتهم وصالحين: آدم. ابراهيم. مغارة الدم المنسوبة إلى قصة ابنى آدم. مغارة الربوة ويقال إنها مريم وعيسى عليهما السلام.. والبعض يربطها بقصة موسى والخضر..

ولا علاقة لهذه الغيران بالقصة وقد ذكرناها استكمالاً للحصر، وإن ذهب بعض كتاب الغرب مذاهب بعيدة فقالوا بوجود الكهف المعنى.. في الجزائر البريطانية.. بل ذهب به بعضهم إلى اسكندناوة الحالية..

والآن لماذا ذكرنا هذه التفاصيل؟ للمعرفة أولا،ثم لتحديد المنهج القرآنى الذى تجنب الكثير وركز على الأصيل.

٩ – زمان أهل الكهف

هناك جملة تستوقف النظر في تفسير الإمام ابن كثير عند شرحه قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾. وهى التركيز على الهدف الأساسى من القرآن توحيدا لله وعبادة وعمرانا للحياة..

ويُنقل عن ابن عباس " الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم". وقال محمد بن اسحق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

ثم يقول تعقيبًا على قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ يقول: وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم. فالله أعلم والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية. لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ،فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر

هؤلاء،وعن خبر ذى القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم.

وانتقل ابن كثير بعدها إلى شرح قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

هذا التعقيب الذكى من ابن كثير يثير تساؤلاً جديرًا بالوقوف عنده:

إذا كان المسئولون هم أحبار اليهود فلماذا يذكرون قصة عن النصرانية التى لا يؤمنون بها؟ والتى يرفضونها كما يرفضون الإسلام.. وإن وجدوا بشارات ذلك في كتبهم؟ من المنطقى أن يكون التحدى بأمر من كتبهم. هم به مصدقون،أو ـ على الأقل ـ من تاريخهم إذا كان بعد رسالة المسيح.

هذه النقطة. وقف عندها الاستاذ محمد أسد في ترجمته لمعانى القرآن الكريم التى نشرها في طبعتها الأولى عام ١٩٨٠ م باسم. رسالة القرآن[١] بمناسبة مطلع القرن الهجري الخامس عشر.

ومحمد أسد اعتنق الإسلام بعد دراسة علمية ورحلات واسعة في العالم الإسلامى وبخاصة في الجزيرة العربية. وباكستان وما بينهما. وله إلمامه الكبير بالدراسات الدينية المقارنة: اليهودية التى نشأ فيها، المسيحية التى عاش بين أهلها، الإسلام الذى اعتنقه، ثم الديانات الأخرى التى خالطها بوصفه صحفيًا أول الامر ثم دارسًا أكاديميًا بعد ذلك ومن أشهر كتبه (الإسلام على مفترق الطرق،الطريق إلى مكة، الحكومة الإسلامية) ثم ترجمات لأحاديث مختارة. والكتب الثلاثة الأولى مترجمة إلى أكثر من لغة. وفى كتابه الأوسط "الطريق إلى مكة " يشرح رحلاته في الجزيرة العربية واهتداءه إلى الإسلام.

وقف محمد أسد عند هذه العبارة من تفسير ابن كثير. وأن قصة أهل الكهف ليست أعجب من القرآن أو مما جاء فيه[٢] وأن أغلب المفسرين يرجعونها إلى عهد الامبراطور دوقيوس في القرن الثالث الميلادى وما حدث فيه من مذابح المسيحيين. وأوى الفتية إلى الكهف في رقادهم الطويل وتغيرت في أثنائه أحوال المسيحية وأصبحت الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية. وكان الدليل على

(١) M .ASAD: THE Message af the Quran ١٩٨٠ دار الأندالس ٠ جبل طارق

(٢) محمد أسد: المرجع السابق حتى ٤٣٧ – ٤٤٠

زمان الفتية ما معهم من نقود ترجع إلى عهد دوقيوس.. هى التى ربطت بين بدء النوم وزمن اليقظة، وهو الذى حدده القرآن "ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا".. هذا ما تذكره المصادر المسيحية وما ذهب إليه معظم المفسرين.. مع هذه الملاحظة العميقة لابن كثير.

يقول محمد أسد: ولعل القصة المسيحية هى تطوير لاحق لقصة قديمة تعود إلى ما قبل المسيحية وإلى مصادر يهودية. ولو أننا عزلنا عن القصة رداءها المسيحى وخلفيتها التى أضافها إليها المسيحيون فستكون القصة يهودية المصدر، ولو أردنا أن نلخص القصة كلها في حقائق محددة. لوجدناها انسحابًا اختياريًا من العالم مدة طويلة كأنها نوم طويل. مع غار منعزل،ثم يقظة معجزة بعد حين من الدهر.. هذا الانسحاب والاعتكاف الطويل يذكرنا تجربة دينية حدثت في القرون السابقة لمجيء المسيحية مباشرة وهى حركة الزهد التى قام بها الاخوان الاسينيون (ولعل المسيح في صدر شبابه كان من بينهم كما يقول محمد أسد) ولقد عاشت جماعات منهم في كهوف منعزلة في سفوح البحر الميت. حيث اكتشفت حديثا لفائف البحر الميت. وقد عُرِفَ هؤلاء باسم "مجمع قمران"، ولفظ "الرقيم" الوارد في القرآن الكريم يُعطي دعمًا لهذه النظرية والرقيم. ومرقوم. وكتاب تلتقى عند أصل واحد هو الكتابة.. ولقد أفرغ الاسينيون أنفسهم في مجتمع قمران لدراسة ونسخ وحفظ النصوص المقدسة وعاشوا في كهوفهم بعيدين عن الدنيا، وكان لهم في المجتمع الخارجى مكانة وتقدير.. ولعل نمط حياتهم كان له أثر عميق على التفكير المسيحي تبلور في قصة الكهف وأصحابه الذين "ناموا" سنين، وانقطعوا عن الدنيا سنين عددا، وأن يقظهتم تعنى عودتهم إلى الحياة العامة بعد أداء مهمتهم الروحية".

ومهما يكن مصدر هذه القصة،يهوديًا أو مسيحيًا – فإنها جاءت في القرآن الكريم تأكيدًا أولاً لقدرة الله على البعث والحياة بعد الموت. اليقظة في الآخرة.. بعد النوم الطويل في القبور. وثانيًا: لبيان موقف المؤمنين إذا فسد من حولهم الزمان، وألجأهم هذا الفساد إلى اعتزال عبث الحياة والأحياء، حتى يحفظوا دينهم نقيًا.. وأن رحمة الله تدرك هذه العزلة المؤقتة فترفعها إلى يقظة تعلو الموت والزمان.

هذا عرض لما ذهب إليه محمد أسد.. وقد لجأ إلى تفسير ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ بالعزلة عن الحياة العامة وإلى تفسير ثم بعثناهم. بعودتهم إلى الحياة العامة،بعد أن فرغوا سنين للبحث الخالص في النصوص المقدسة.

وقد نستطيع أن نذهب مع محمد أسد إلى المصدر القديم للقصة،ولكن لن نستطيع أن نخرج عن النص القرآنى فهو وحى الله الذى أنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام ولنلاحظ هنا مرة أخرى أن النص القرآنى لم يحدد "زمانا" للقصة وبهذا ارتفعت الآيات فوق مستوى الحوار حول الزمان، كما ارتفعت من قبل فوق مستوى الحوار حول المكان.

ولكنها استبقت من المكان بعض أوصاف الكهف، واستبقت من الزمان ما كان فيه من صراع بين التوحيد والوثينة.

وهناك تفسيرات لمعانى القرآن باللغة الإنجليزية وبعض لغات العالم الإسلامى عرضت لقصة الكهف من زوايا أخرى.. ونكتفى منها بنموذج جاء في ترجمة معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزية والتى قام بها مولاى محمد على وصدرت عن "الجماعة الأحمدية لنشر الإسلام" وهي إحدى شعب القاديانية: في لاهور بباكستان.

هو يربط بين القصة وتاريخ المسيحية: فالكهف عنده هو رمز فترة الدعوة السرية في حياة المسيحية. أما الرقيم " والمقصود به الكتابة فهو بدء الإعلان بالدعوة[1]. وهى المستمرة في المسيحية حتى الآن. يقول المترجم والشارح: وكأن القرآن قد اختار هذين الرمزين لهاتين المرحلتين الأساسيتين في التاريخ المسيحى: الأسرار والإعلان: الكهف والرقيم. أو دين رهبان تحول إلى دين أعمال (ولعله يقصد التحول من الترهب إلى التجارة والتكسب بالدين). وعلى هذا المنهج أخذ في تأويل الكلمات الأخرى: ضربنا على آذانهم،منعناهم من السمع أو قطعناهم عن العالم من حولهم عددًا من السنين. ثم يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إن القرآن لم يؤكد وجودهم في الكهف مئات السنين،ولا أكد أنهم ناموا هذه

(١) مولاى محمد على: الترجمة الإنجليزية وشروح القرآن الكريم، .الطبعة السادسة ١٩٧٣ ص ٥٦٩–٥٧٠.

المدة.. وعندما جاء إلى آيــة ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ قال في الشرح إن بعض المفسرين يضيفون كلمة ويُقال قبل الآية كأنها قول قيل وليست حقيقة قرآنية. وأورد نص الترجمة مطابقًا للآية فقال: "ولبثوا في كهفهم"..

وانتقلت من تفسير مولاى محمد على القادياني إلى ترجمة ظفر الله خان القادياني وكانت طبعته الأولى عام ١٩٧٦ والطبعة التى أمامى هى الثالثة عام ١٩٨١. فإذا الذى ذكره مولاى محمد على في شرحه قد حمله ظفر الله خان إلى النص (وترجمة دون شروح) فقال في الآية الكريمة " يقول البعض: ولبثوا في كهفهم " وهى إضافة من عنده لا أساس لها في النص القرآنى..

وهكذا حمل القصة على الرمز.. والسنوات إلى أقوال.. والمدة مردها إلى الله، وهكذا سار بعض المفسرين بالقصة من الحقيقة إلى الرمز.. وتحركوا بها زمانا ومكانا.. وليس لنا ولا أمامنا إلا النص القرآنى نعود إليه دارسين وإذا كان على الملاح أن يعرف صخور الطريق.. فهو يعرفها ليتبين الطريق السوي، ويتجنب الاصطدام بالصخر.. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

١٠ – طريق إلى الله ومعرفة بالأرض

يقول الله تعالى:

﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ ﴾.

نقف عند لفظ "الكهف" وتحديدا عند الألف واللام في صدر الكلمة. فهو كهف معروف لديهم ومحدد. ولم تقل الآية الكريمة إذ أوى الفتية إلى "كهف" أي كهف.

ولايأتى هذا التحديد إلا بعد معرفة. ولا معرفة إلا بعد دراسة. ولا دراسة إلا بعد تجول طويل وفهم لما حول المدينة. وكأن ما حول المدينة كان أقرب إلى نفوسهم مما فيها. وماذا كان فيها سيخبرنا الفتية بما كان في المدينة من كفران وجحود وبُعد عن الله تعالى. لاتقف الآية كثيرًا عند زمان ولا مكان

وإنما تحدد أولاً أعمار هؤلاء المؤمنين.. "فتية" في عمر الزهور والشباب مظنة الإغراء، والانسياق وراء الملذات القريبة. ولكنهم انصرفوا عن ذلك،وأحبوا ما حول المدينة.. هناك يشاهدون الكون في امتداده وآفاقه. السماء فوقهم قبة مضيئة بالنجوم ليلا،حانية الأطراف نهارا. وفى سكون البادية تستطيع أن تسمع الوجود.. الصامت أمام كثيرين،الناطق أمام المؤمنين.. وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد. هذه المدينة المائجة بالفتنة والمقربات بعيد عن قلوبهم،وهذه البادية الطاهرة الأرض والأفق هى القريبة.. فلنتجول فيها، فقد نحتاج إلى غار نأوي إليه.

واضح من التحديد أنهم درسوا الكهوف والغيران حول المدينة،وأنهم قد اختاروا هذا الكهف ليكون مأواهم إذا احتاجوا إليه..

هل نستطييع أن نرى في هذا توجيها في هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام؟

لا نستطيع أن نقول إنه اختار غار حراء ليعتكف فيه دون دراسة،ولا نستطيع أن نقول إنه اختار غار ثور ليأوي إليه وهو على طريق الهجرة دون دراسة.

تمر كتب السيرة مرورًا سريعًا على "اختيار" موقع الغار الأول والثانى. ولكن منهج المصطفى عليه الصلاة والسلام في التحري الدقيق لأعماله لا يدع لنا إلا قولاً واحدًا: هو أن اختيار الغار كان عن دراسة، وأنه أمضى أيامًا وأيامًا يتجول في جبال مكة،ليحدد الغار الذى سيلجأ إليه.. قام بهذا أو قام بهذا أحد أقرب الناس إليه. بدليل أن الغار كان معروفًا عند تنفيذ الهجرة لكل من أبى بكر وأسماء وعبدالله بن أبى بكر وعامر بن فهيرة ثم عبدالله بن أريقط.. ومن المنطقي أن يكون معروفًا لأقرب أهل بيته فكما في أمر الهجرة وهو على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين.

فتية الكهف درسوا وأختاروا واستعدوا.. فما جاء الوقت المعلوم. أوى الفتية إلى الكهف فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا"

فهم قد خرجوا لله تعالى فرارًا من الفتنة وبطش الحاكم ومن معه. وما معهم: وصفهم الله: أصحاب الكهف والرقيم.. وفى الرقيم تتعدد الأقوال: ولعل أقربها صحائف مما آمنوا به، هى زادهم الفكرى والروحى. ومال قليل: ماذا يغنى وإلى

أى أمد يستطيع أن يكفل أمرهم. وكلب حارس باسط ذراعية بالوصيد. وماذا أقل؟ أوراق ومال قليل وحراسة كلب.. هذا أمام جبروت المدينة وبطشها.

لكن كان عندهم مدد لا ينفد: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أمام جبروت المدينة وبطشها.

لقد خرجنا من أجلك، واعتمادنا عليك وامتدادنا منك وثقتنا فيك. فآتنا ربنا من لدنك رحمة.. وماذا بعد أن يفرغ المال وهو قليل،وعلينا أن نطعم أنفسنا وهذا الحيوان الأعجم الذى ربط مصيره بنا طعاما شرابا ومأوى.. كيف إذا احتجنا إلى طعام؟ وماذا لو دبرناه فترة ثم احتجنا إلى طعام جديد ومال جديد؟.. كل هذا جمعوه في دعائهم ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

ويأتى أمر الله دون أن يشعروا به ولا أن يقدروه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾

وهذه مفارقة واضحة حين نقارنها بالهجرة النبوية من عدة زوايا:

الأولى: أن هجرة أهل الكهف كانت من المدينة إلى الكهف.. **أما الخطوة التالية** فلم تكن معروفة لديهم. وعندما أيقظهم الله.. لم يدروا كم ناموا.. وكان الذى فكروا فيه أن يحصل أحدهم على طعام من المدينة، دون أن يشعر بهم أهلها.. وحتى بعد هذه: لم تكن الخطوة واضحة.. نستطيع أن نقول: إنه خروج من المدينة إلى إيواء مؤقت.. وإذا أردنا له تشبيهًا أقرب في حياة الدعوة الإسلامية،كان من بعض جوانبه كالهجرة إلى الحبشة: هجرة إيواء حتى يجعل الله للإسلام مخرجًا من مكة.

أما هجرة المدينة فكانت محدودة المعالم واضحة البدء والنهاية ومراحل الطريق كانت عملاً علميًا مؤمنًا منظمًا وكانت فتحًا لأفق جديد وقاعدة جديدة ينتشر منها الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها.

ثم يلتقى خروج أهل الكهف وخروج المصطفى من مكة في رحمة الله السابغة بعد بذل الجهد:

أما في الكهف فيتمثل في قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ وأما في الهجرة فانظر قوله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (التوبة: ٤٠)

تنزلت رحمة الله على فتية الكهف بعد أن اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله،وآووا إلى الكهف.. وكان هذا آخر ما عندهم من جهد.. وكما سبق القول: اختيار مكان الغار. كتب الدراسة: الرقيم. المال القليل الذى يملكون كلب الحراسة الذى صحبهم.

وتنزلت رحمة الله على رسوله وأنزل عليه السكينة. بعد الجهد الذى بذله في تنظيم أدق أمور الهجرة: اختيارًا للموقع والأفراد وتوزيعًا للمسئوليات بينهم،وإعدادًا للرواحل لمتابعة الهجرة إلى قاعدة الإسلام في المدينة..

ومع أن الآية الكريمة تنص بوضوح على إنزال السكينة على المصطفى عليه الصلاة والسلام وتنص على أن الله سبحانه تعالى " أيده بجنود لم تروها. فلا نستطيع التحدث فيها إنها من غيب الله المحجوب ظهرت آثاره في نجاة المصطفى عليه الصلاة والسلام وصاحبه الصديق أبي بكر رضى الله عنه، وفى الستر الذى ألقاه الله تعالى على كل من شاركوا في مسئوليات الهجرة رجالا وشبابًا ونساء: من بيت المصطفى أو بيت أبى بكر أهلاً أو أتباعًا أو أهل ثقة كعبد الله بن أريقط دليل الرحلة،ولم يكن وقتئذ قد اعتنق الإسلام.

ولقد كانت النجاة في قصة الكهف نومًا وانعزالاً وبعدًا عن واقع الحياة اليومية،وكانت النجاة في الهجرة النبوية تفاعلاً قويًا مع أحداث مكة والمدينة.

أخبار مكة كانت تصل يومًا بيوم مع عبدالله بن أبى بكر إلى الغار، الطعام يصل مع أسماء، اللبن مع أغنام عامر بن فهيرة.

الرواحل وهى وسيلة الاتصال بالمدينة معدة في الانتظار، مجهزة هى والدليل على إشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن يتأكد من انقطاع البحث، ثم ينطق الركب الميمون في طريقه إلى المدينة.. حتى العامل النفسى كان في حسابات المصطفى ﷺ.

الهجرة النبوية كانت يقظة دائمة.. وكانت هجرة أهل الكهف يومًا طويلاً. وكل من الهجرتين بأمر الله تعالى. هذه طاعة وهذه طاعة. ولكن هذا زمان ومنطق. وهذا زمان ومنطق، ومنطق أهل الكهف انعزال أمام القوة الباغية. والمنطق المحمدى تغيير للموقع لاتخاذ قاعدة جديدة ينطلق منها الإسلام ويتكون فيها المجتمع الجديد بتماسكه الداخلى وقوته الضاربة التي تستطيع أن تحمى العقيدة. وتقوم بنشرها.

ألا يفتح هذا المجال أمامنا لدراسة المنهج القرآنى، ومدى ارتباط كل قصة من قصصه بقصد وهدف.. لنخلص إلى الربط بين هذا القصص، وكيف جاء القرآن كما نصت على ذلك الآية الفاتحة في سورة الكهف: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا ﴾. إنه الصراط القيم على ما سبق.

١١ ـ الحياة في الكهف

يقول الله تعالى عن فتية الكهف: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ۝١١ ﴾.

عاش الفتية في الكهف سنين عددا معزولين عن الحياة العامة " فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ".. حال الله بقدرته بينهم وبين السمع في هذه الفترة.. والضرب على الآذان كناية عن النوم الثقيل. فهو يستلزم عدم السمع. والسمع السليم لا يحجبه إلا النوم، هذا غير البصر الصحيح فقد يُحجب بتغميض الأجفان.

الآذان لا نغلقها حين ننام. ولكن العيون نغمضها.. وسيأتى ذكر العيون بعد ذلك. إن السمع طريق مفتوح دائمًا للعالم الخارجى: وما جرى عليهم ـ والله أعلم ـ جرى على كلبهم أيضًا. وهو أشد إحساسًا بالمسموعات من الإنسان.

وسنين عددا كثيرة. والعدد هنا مجمل لإجمال القصة قبل تفصيلها ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

والبعث هنا: الإيقاظ. ولفظ البعث هنا للربط بين القصة وبعث الآخرة.

وتنص الآية على حزبين أختلفا في مدة اللبث في الكهف ونحن نقرأ تعدد الآراء حتى بين أهل الكهف. كما سيرد في آيات تالية:

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ وكذلك أهل المدينة، بعد أن بعث الله أهل الكهف وتساءلوا: من أى عهد هم؟ ولم يصدقوا الشاب الذى جاء يطلب الطعام. السن سن شباب. والنقود التى معه قديمة تعود إلى ثلاثة قرون. فمن يصدقون الشاب أم النقود التى معه؟ وإذا كان صادقًا فكيف عاش والذين معه؟ وإن كان غير ذلك فكيف يجرؤ على هذا الافتراء في زعمهم.

ولا يزال الخلاف قائمًا.. حتى بين المفسرين المحدثين حتى ذهب بعضهم إلى الرمز وفسر النوم بالاعتكاف، والرقيم بالعكوف على الكتب المقدسة..

وخرج القرآن من هذا بقوله على لسان الشاب في أول الأمر: ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾.

ثم جاء التحديد في آيات لاحقة: ثلاث مائة سنين لو حسبناها شمسية وازدادوا تسعا لو حسبناها قمرية.

بعد هذا يقص الله علينا قصتهم مفصلة. والتفصيل فيها يخدم هدف القصة والعبرة: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾.

فالقرآن هو القصص الحق. وآياته يصدق بعضها بعضًا وعلينا في الدراسة أن نستحضر مرحلتين من الإعجاز الإلهى إحداهما سابقة للإسلام. والثانية هى حجة الإسلام.

ما قبل الإسلام معجزات كونية وحسّية: شق البحر أمام موسى. تحول عصاه إلى حية. يده بيضاء من غير سوء. تفجر الماء من الصخر... وينص القرآن على أنها آيات بينات تؤكد نبوته:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ (الإسراء:١٠١-١٠٢). والمثبور هو الذى أصابه الثبور وهو الهلاك.

وفى نفس سورة الإسراء وهى السابقة مباشرة في الترتيب المصحفى للكهف نقرأ تحدي قريش الرسول أن يأتى بآيات كونية: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

لم تأت رسالة الإسلام مؤيدة بالمعجزات الكونية. وفى سورة واحدة أمامنا وهى الإسراء نرى لموسى عليه السلام تسع آيات بينات.. ونسمع قول الله بعلمه المصطفى عند التحدى بالآيات الكونية: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

ثم نقرأ بعدها مباشرة: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ ﴾

فلابد أولا أن يكون الرسول من جنس البشر.. ولقد جاءت الآيات الكونية،وكذبت بها الناس أو بعضهم. وأخذهم الله بذنوبهم: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾ ﴾.

جاءت الآيات الكونية وذهبت: أين سفينة نوح؟ أين عصا موسى؟ أين الرجل الذى أحياه عيسى بإذن الله؟ أين من شفاهم بإذن الله؟ أين ناقة صالح؟ أين حمار العزيز؟... ذهب هذا كله وبقى الدليل الحق والحي عليه هو القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الباقية،التى تؤكد حدوث المعجزات الكونية السابقة، ولكن لتسلك بالإنسانية نسقا جديدا معجزها كلام الله الباقي الهادي.. ولنستمع إلى قول المصطفى عليه الصلاة والسلام موضحًا الفرق بين العهدين والمعجزتين والمنهجين وهما جميعًا من عند الله: "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحى الله إليَّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة". رواه مسلم عن أبى هريرة.

فالقرآن الكريم جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب مهيمنًا عليه. جاء قيمًا لاعوج فيه. يؤكد المعجزة الكونية ولا يتابع مسيرتها وإنما يضع في يد الإنسانية المصباح المنير الدائم الإشعاع: ﴿ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة: ١٥ – ١٦).

فرق كبير بين تأكيد حدوث معجزة قديمة وتكرار حدوثها بعد نزول القرآن الكريم، إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحي الموتى كما أحيا عيسى بإذن الله ولكن أحيا الإنسانية بنور القرآن الكريم: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الانعام: ١٢٢).

وجاء هذا القرآن شفاء.. لا يشفى مجرد فرد من مرض ولكن يشفي نفوسًا على امتداد الزمان والمكان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (يونس: ٥٧ – ٥٨).

الفرق الرئيسي بين المعجزات السابقة وبين القرآن الكريم، هو الفرق بين التاريخ والحاضر المتجدد بين الماضى والاستمرار، المعجزات قبل الإسلام مضت وانطوت صحائفها، ولم تبق إلا نصوصا مكتوبة أما القرآن فالمعجزة الباقية، والتحدى به دائم متجدد.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ الإسراء. والتصديق بالمعجزات السابقة هو التصديق بحدوثها في وقتها لا بتجدد وحدوثها ولا تكرارها. والاطار المعجز والعقلى الذى نعيش به هو القرآن الكريم..

وما من معجزة جاءت في سورة الكهف إلا ولها نظائرها في مواطن أخرى من القرآن الكريم.. فليس فيها شيء فرد لو تأمل الإنسان السورة بعمق:

ما بين أهل الكهف والقصة التي ذكرها الله في سورة البقرة ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل

لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ (أى لم يتغير) وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٩)

١٢- المعجزة في ذاتها قانون

في القرآن الكريم نماذج متعددة ومتنوعة من النوم والموت القصير والطويل، فى عالم الإنسان والحيوان.

ونستطيع أن نضع العبارة في صياغة أخرى: "فى القرآن نماذج متعددة من الحياة والإحياء القصير والطويل في عالم الإنسان والحيوان".

وبهذا لا تكون قصة الكهف بدعًا في قصص القرآن ولا قصص الأنبياء، وأول هذه النماذج أبونا آدم عليه السلام يقول الله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (ص: ٧١: ٧٢) ثم تأتى أمنا من ضلع أبينا حياة من حياة ويأتى الأبناء: حياة من حياتين، ويأتى عيسى: حياة من أم ونفخة من روح الله.

وتشهد التبادل بين النبات والحيوان في قصة موسى:

- عصاه: نبات هى أم حيوان زاحف؟ وأى حيوان؟ يلقف غيره من الحيوانات – أو الحيات – ثم يعود عصا فأين ذهبت الحيات المأكولة.. بل أين الثعبان الذى كان؟

والطيور في قصة ابراهيم؟ ما أمرها؟ نقرأ معا قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ

جَبَلٍ مِّنۡهُنَّ جُزۡءًا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، فصرهن: قطعهن.

كان سؤال إبراهيم عن "كيف" فلم يبين الله كيف وإنما أراه الظاهرة فقط: الإحياء. ووضع في يده – إلى حين- القدرة على أن تستجيب له الطيور الممزقة إذا دعاها. أما كيف " فهذه من عزة الله حكمته ومما استأثر بعلمه.

ويذهب بعض المفسرين إلى الرمز في هذه القصة: فإحياء الموتى هى الدعوة إلى الله. وصرهن إليك هى التربية الودود التى تلين بها القلوب وتستجيب لأمر الله فإحياء القلوب الميتة يكون بالدعوة إلى الله برفق وأناه...

ننتقل الآن إلى تباين فترات الموت أو الرقاد

ولعل أقصر الفترات ماحدث مع عيسى عليه السلام. في هذا تقرأ قوله الله تعالى:

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي ﴾ (المائدة: ١١٠) ففى الآية ظاهرتان من الإحياء: الأولى من الطين والثانية بعد الموت.

وكان الذى أحياها عيسى بعد أيام من موته الأول كما هو مشهور وتطول المدة في قصة العزير التى سبق ذكرها حتى تصل إلى مائة عام.

ثم تطول في قصة الكهف بعد نوم طويل استمر ثلاثمائة سنين ازدادوا تسعا.

ثم تطول مع كل إنسان٠ معى. معك. مع كل حى. كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال الإكرام. تطول قرونا وقرونا. وأقرأ مشاهد القيامة في كتاب الله مبثوثة من أول إلى آخر سورة.. اقرأ كنموذج قول الله في وصف هذا المشهد:

﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ (الزلزلة)

ونصور البشر جميعًا على امتداد العصور والأقطار، يوم يقوم الناس لرب العالمين. الذين اختلطت عظامهم بالأرض، والأجساد التى تداخلت في أجساد، والذين طوتهم البحار، والذين التهمتهم حمم البراكين. والذين مزقتهم المعارك والحروب.. والذين امتصت أجسادهم النباتات،أو التهمتهم الحيونات، والذين طووا أجسادهم في الصحف – أو التوابيت. والذين أحرقوها أو جعلوها في حواصل الطير..

أيها أعجب؟. إطالة مدة النوم في مكان آمن سنين عددا؟.

أم جمع الخلائق بعد آلاف السنين من كل مظانها على امتداد العصور والأقطار؟.

إن كل إماتة أو إحياء من هذه قانون بذاتها. والقوانين كلها صنع الله تعالى.. الذى مات أياما ثم بعثه الله ٠ والذى أماته مائة عام،والذى أنامه ثلاثمائة سنين.. والذين أبقاهم آلاف السنين.. لكل حادث من هذه قانونه الخاص فالمعجزة التى نراها ليست خرقا لقانون إلهى، وإنما هى ذاتها قانون مضاف إلى قوانين يكشف الله لنا عنه ستر الغيب،فنراه مرة أو أكثر ثم يطويه الغيب إلى ما جاء منه.

ولك أن تقول إن كل هذه المعجزات تقع على نقاط في خط أوله خلق آدم وآخره البعث يوم القيامة.. نقاط تتحدد فيها فترات الإماتة والإحياء لحكمة لعلمها الله. بعض هذه الحكم نقرؤه في القرآن،وبعضها يدعونا القرآن إلى التأمل في ظواهر الاعتبار به دون أن ندرك الكنه أو الكيف ٠ فالكيف غيب وسر إلهى.

وإن فتية الكهف لم يطلبوا النوم الطويل ولا أحسوا به، وإنما أراد الله أن يجعلهم للناس آية والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ويصطفى من الناس من يجرى عليهم قوانين خاصة تعيد الناس إلى إيمانهم ورشدهم وتذكرهم

بالحقائق الكبرى في هذه الحياة إذا صرفتهم شواغل اليوم والصراعات من أجل المناصب والجاه أو طلب الرزق.

وليس لنا أن نسأل فتية الكهف-ولو كنا في عهدهم-لماذا حدث لهم – ولهم وحدهم بالذات-هذا النوم الذى امتد قرونا فإنهم لم يكونوا أكثر من المادة البشرية المؤمنة التى أختارها الله تعالى تتجلى فيها آية من آياته.

لقد نفذوا ما عليهم الإيمان بالله تعالى. رفض الكفر والوثنية صارحوا أنفسهم وقولهم بذلك٠ توكلوا على الله ربهم ارتفعوا فوق شهوات المدينة الظالمة وأهوائها إلى مستوى الإيمان النقى بهذا ربطوا أنفسهم بحق الكون الكبير: - ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾

وهنا غير تأييد الله وعونه في قوله تعالى "وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ".

ونذكر في هذا ما كان من أمر أم موسى في موقفها العصيب،وابنها مهدد بالقتل، وهى عليه حريصة وقد ادخره الله للرسالة يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (القصص: ٧).

ثم قول الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (القصص: ١٠).

وبين الموقفين تشابه وتباين مع فتية الكهف:

إن الكهف تابوت ثابت. والتابوت كهف متحرك. ورحمة الله كانت مع فتية الكهف الذين ذهبوا مختارين، ومع أم موسى وقد ربط الله على قلبها وثبت إيمانها ، كان مع موسى وهو لايدري من أمر نفسه شيئا.

رحمة الله التى حفظت فتية الكهف،هى رحمة الله التى حفظت موسى في التابوت الصغير،بين الماء والضفاف، السماء وهى التى حفظت المصطفى عليه الصلاة والسلام في الغار هى التى حفظت نوحا ومن معه في الفلك.

تتعدد صور الرحمة. والرحمة في ذاتها ربانية. والربط على القلوب تثبيتًا هو من آيات هذه الرحمة.. إن ربنا هو البر الرحيم.

١٣ـ معادلات قرآنية

فى قول الله تعالى:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معادلة لها طرفان: من الفتية الإيمان،ومن الله التأييد والربط على القلوب.

تسير أنت إلى الله في طريق هداك إليه،فتجد من الله العون والسند والتأييد.

وكثيرة هى المعادلات القرآنية التى تؤكد الترابط بين الإيمان وتأييد الله تعالى. واقرأ في هذا نماذج من القرآن الكريم:

- ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (البقرة: ١٥٢)
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ (محمد :٧)
- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة:١٨٦)
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الانفال: ٢٩)

ويضع ربنا قاعدة عامة لذلك في قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (غافر: ٥١)

وعند قول الله "والذين آمنوا" نذكر أن الإيمان عقيدة وعمل. عقيدة سليمة وعمل يتكافأ مع الموقف الذى يقفه المؤمن: قد يكون الموقف استعدادا علميا، قد يكون خطة تنمية، قد يكون صناعةعسكرية، قد يكون حاجة إلى ابتكار وإبداع يتفرغ له نفر من القادرين على ذلك..

فإيجابية الإيمان، هى مقابلة الموقف بما يستحق.. وفى سورة الكهف التى نحن بين يديها نرى الإيمان مرة آويا إلى غار، ومرة نراه مشروعا لبناء سد من حديد ونحاس. ونحس في الآية الجهود المبذولة، والمواد المجموعة والتخطيط الدقيق.. وهذا إيمان وهذا إيمان. ولكل من الموقفين عدته واستعداده.

ومرة نرى الإيمان صبرًا وتماسكًا داخليًا في نفس فرد كما في قصة صاحب الجنتين، ومرة نراه صبرًا وتماسكًا في جماعة محدودة العدد كما في قصة الكهف، ومرة نراه في جموع كبيرة تتحرك لهدف واحد كما في قصة ذى القرنين، ومرة نراه صبرًا على التعلم والاستزادة من أعماقه وأبعاده كما في قصة موسى والعبد الصالح.

قلنا خذ من قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (والشطط هو الإفراط في مخالفة الحق والصواب) لنأخذ من هذا أمرين:

- **الأول**: الإيمان.
- **الثانى**: مقابلة هذا الإيمان للموقف، واستعداد الفتية بما كان بين يديهم من طاقة: لجوءا إلى الغار ومعهم كتبهم ومالهم وكلبهم ثم تولت رحمة الله توجيه القصة دون أن يكون للشباب في المرحلة التالية يد تعمل..

نقرأ بعد هذا قول الله تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

ولنتأمّل كلمة "قومنا" بالضمير المتصل الدال على القرب. فهم إن كفروا أو آمنوا قومنا الذين ندعوهم إلى الله، ونرجو لهم الخير. وأفضل الخير التفكير السليم المبرّأ من التقليد وعبادة الآباء والأجداد وما كانوا عليه.

التفكير = نعمة، التفكير فريضة، التفكير نور، واقرأ قول الله تعالى موجهًا رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يقول لقومه:

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠ ﴾ (سبأ ٤٦: ٥٠).

كلمة "قومنا" هنا تذكرك بدعاء المصطفى عليه الصلاة والسلام: اللهم أهد قومى فإنهم لايعلمون.

لايعلمون، علاجها أن يعلموا وطريق العلم السؤال والتفكير والحوار..

وهذا ما قاله فتية الكهف: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ ﴾ هو الله الواحد القهار. وقومنا أخطأوا من ثلاث جهات:

١- تركوا الواحد إلى التعدد.
٢- تركوا الأعلى إلى الأدنى.
٣- ساروا في طريق بغير بينة ولا سلطان.

هؤلاء الذين لا يرتضون لأنفسهم إلا حاكما أو رأسًا واحدًا للدولة.. يجعلون للكون آلهة متعددة، يوزعون بينها التخصصات، ويتنازعون بينهم، كما تروي الأساطير القديمة.. ما الدليل وما البينة؟

وإذا انعدم الدليل، فقد الغرم المستدل عليه: وهو هنا التعدد والدونية.. من أجل ذلك جاء في قول الفتية: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾.

فالذي فيه قومنا افتراء وكذب: كذب على الله، وعلى أنفسهم، وعلى الناس من حولهم.. وهذا أشد الظلم.. والظلم هنا ظلام يبعد بهم عن نور الحق واجتراء يبعد بهم عن الطريق السوى.

ولقد صارح الفتية قومهم بما يعتقدون أنه الحق، ودعوهم إلى الحوار الحر الموضوعى.. فلم يجدوا منهم آذانا صاغية ولا قلوبًا واعية،ولا عقولاً مفكرة.. وإن الذى يظلم التوحيد دينًا،والناس بغيًا وصدودًا عن الحق. سهل عليه أن يعذبهم أو يؤذيهم..ذلك لأن الإيمان حافظ للنفس من النفس،وحافظ للناس من البغى. فإذا انكسر سد الإيمان تدفقت الأهواء والشهوات والمظالم ولم يعد أمام الفتية وقد عرفنا حدود قوتهم إلا أن يعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله،خوف الفتنة والإيذاء. وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ﴾

ويأتى هذا عن تناصح وتشاور بين الفتية.. يشرح أسبابه ما جاء على لسانهم بعد أن أيقظهم الله: ﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذٗا أَبَدٗا ٢٠ ﴾

أصبح موقف المدينة منهم أحد أمرين: الرجم وهو أشد وأقسى أنواع القتل٠ أو الإكراه على العودة إلى الوثنية.. وحتى إذا كتموا أيمانهم وأظهروا الكفر،فبأي عناء يعيشون فيه وكيف يتحملونه؟.. إنه في ذاته إتلاف آخر وقتل.

كانوا مهددين بأمرين: فقد الدين وفقد الحياة. فقد العقيدة والتعبير عنها، وأن يعيشوها.. فلم يجدوا أمامهم إلا اعتزال قومهم.

بلغ الكتاب أجله، ووصل الظلم إلى أمده. وأمام الفتية إما القتل أو الفتنة في الدين.. فلم يجدوا أمامهم إلا أن يعتزلوا قومهم وما يعبدون.. وفى اعتزالهم هذا ظلوا متمسكين بالحق الأكبر " الله " جل جلاله.. يعتزلون القوم والمدينة والأهل والجيرة والعشيرة... إلا الله فهو الحصن الذى يأوون إليه.

وإذا كان الكهف إيواء لأبدانهم، فإن الإيمان إيواء لأرواحهم.. قل: إن الإيمان كهف أرواحهم.. ومعية الله والإيمان خير من الدنيا وما فيها..

وعلى بركة الله ساروا.. وفى الكهف اعتزلوا قومهم وما يعبدون وعاش الفتية في أنس الإيمان، أيقاظًا ورقودًا.

١٤- في كهف الإيمان

قال فتية الكهف بعضهم لبعض:

﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

إلى هذا الكهف الحنون ذهبوا..

مهما يكن الكهف.. فهو صخر أصم، ولقد اختاروا كهف يتلاءم مع عددهم، لا يضيق بهم، ولا يتوهون فيه لاتساعه.. فسعة الكهوف لا تؤمن معها المفاجآت: الشقوق وتسرب المياه والهوام والزواحف.

وبين "الكهف" و "ينشر" مقابلة أخرى

الكهف تحمل معنى التحديد. تحديد المساحة.

ينشر تحمل معنى الاتساع والامتداد.

و "لكم": تحمل معنى أنهم هم المعنيون بهذه الرحمة و الطالبون لها، والداعون لأن يتفضل بها ربهم عليهم.

و "ربكم": الرب فيها التربية والرعاية. والضمير المتصل فيها يفيد القرب.

و "من": تفيد العطا، وتوالي العطاء.

رحمة الله لا تنفد. فكل خير هو بعض رحمة الله ووراء الفيض فيض آخر.

ومما يدل على أملهم في مزيد الرحمة، وتحديد حاجاتهم ما جاء في الآية الكريمة: " ويهيىء لكم من أمركم مرفقا "

هذا الأمل الكبير في رحمة الله.. أمل في أن يهيىء لهم من أمرهم مرفقا..

والتهيئة إعداد. والإعداد ملاءمة للمكان والزمان والموقف. وفى حياتنا نقول. هيأت للضيف القرى أو المكان أعددت له الأمر الملائم له. وهم يدركون الأخطار التى حولهم، وأن الملك وحاشيته لو عثروا عليهم لكان مصيرهم الرجم أو الفتنة. من أجل ذلك سألوا ربهم الحماية والستر والرزق.. ما يرتفقون به من طعام في هذا